القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

طارق بن زياد

عبد الحميد جودة السحار

٤

١

خرج طارقُ بنُ زيادٍ في سبعةِ آلافٍ من المسلمين ، جُلُّهم من البربر ، في أربعِ سُفن ، جهَّزها يُلْيانُ لينتقِمَ من رُذْريك « لُذْريق » ملكِ الأندلُس ، الّذى اعتدى على ابنته فلورِندا ؟

انطلقتِ السُّفنُ تحملُ فوارسَ صناديد ، يتوقونَ للقِتال ، ويطمَعون فيما في أيدى الأندلُسيِّين ، ويَرجُونَ الثّواب ، فقد كانوا خارجينَ في سبيلِ اللّه ، لرفعِ كلمتِه ، وإعلاءِ دينِه ، وتوسيعِ رُقعةِ الإسلامِ والمسلمين .

ونام طارقٌ في مرْكَبه ، فرأى في منامِه النَّبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرونَ والأنصار ، قد تقلَّدوا السيُّوف ، وتنكَّبوا القِسِيّ ، يقولُ له :

- يا طارق : تقدَّم لشأنِك .

ونظرَ إليه ، وإلى أصحابه فألفاهُم قد دخلوا الأندلُس قُدَّامَه ؛ فهبَّ من نومِه مُستبشِرا ، وبشَّر أصحابَه ، وثابَتْ إليه نفسُه ، ثقةً بُبشراه ، فقويَتْ روحُه ، ولم يشكَّ لحظةً فى الظَّفَر .

وحَطَّ بجبلِ طارق المنسوبِ إليه ، ولم تزَلِ المراكبُ تعودُ حتَّى توافَى جميعُ أصحابه عندَه ، وتأهَّبَ لشنِّ الغارة . وإذا بخبرِ نزولِه إلى البرِّ يبلغُ لُذْريق ، فيتأهَّبُ لُملاقاةِ الغُزاةِ ويُبادرُ فى جموعِه ؛ وهمْ نحوُ مِئة ألف ، ذوى عُدَّةٍ وعَدَد ، وينطلق ليقاتلَ الَّذين جاءُوا يقاتِلونهُ فى عُقْرِ داره .

رأى طارقٌ جيشَ الأندَلُس ، فكتب إلى موسى بأنَّه قد زحفَ عليه لُذْريق ، بما لا طاقة له به ، فبعثَ له موسى خمسةَ آلاف من المُسلمين ، فصارَ جيشُ طارق اثنَىْ عشرَ ألفًا من الأبطالِ الصَّناديد .

وأصاب طارقٌ عجوزًا من أهلِ البلاد ، راح يسأَلُها عن أحوالِ القوم ؟ فقالت له فى بعض قولِها :

- إنه كانَ لها زوجٌ عالِمٌ بالحِدْثان ، فكان يحدِّثهم عن أمير ، يدخُل إلى بلدِهم هذا ، ويَغلِبُ عليه ، ويصِفُ من نعتِه أنه ضخمُ الهامَة ، وأنتَ كذلِك : وأنَّ فى كَتِفِه اليُسْرَى شامة ، عليها شعْر ، فإنْ كانت بك هذه العلامة ، فأنت هو .

فكشفَ طارقٌ ثوبَه ، فإذا بالشّامةِ فى كَتِفِه ، فاستبشرَ بذلك ، وراح يتأهَّبُ للمعرَكةِ التى ستفصِلُ بينه وبين لُذْريق .

٢

أحرقَ طارقٌ سُفنَه ، حتّى ييأسَ جنودُه من العَوْدة ، وحتّى يُقاتلوا فى استْبسال ، دون أن يخطُرَ الفِرَارُ لهم على بال ، وقامَ فى أصحابه ، يحثُّهم على الجهاد ، ويُرغِّبهُم فيه ، فَحمِدَ اللّه ، وأثنَى عليه ثم قال :

ـ « أيُّها النّاس ! أينِ المَفَرّ ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدُوُّ أمامَكم ، وليسَ لكم واللّه إلاّ الصِّدقُ والصَّبر . واعلموا أنّكم فى هذه الجزيرة ، أضيَعُ من الأيتام ، فى مأدُبَة اللّئام . وقد استقبلكُم عدوّكم بجيشِه ، وأسلِحتُه وأقواتُه موفورة ، وأنتُم لا وَزَرَ (أى مَعقِل) لكُم إلاّ سيوفُكم ، ولا أقواتَ لكم إلاّ ماتستخْلِصونَه من أيدى عدوِّكم . وإن امتدَّتْ

بكم الأيامُ على افتقارِكم ، ولم تُنجزوا لكم أمْرًا ، ذهبتْ ريحُكم ، وتعوَّضتِ القلوبُ من رُعبها منكم ، الجرأةَ عليكم . فادفعوا عن أنفسِكم خِذْلانَ هذه العاقبةِ من أمركم ، بمُناجزةِ هذا الطَّاغِية ، فقد ألقَتْ به إليكم مدينتُه الحصينة ؛ وإنَّ انتهازَ الفرصةِ فيه لممكن ، إنْ سَمَحتُمْ لأنفسِكم بالموت . وإنِّى لم أحذِّرْكم أمرًا أنا عنه بنَجوة ، ولا حَمَلْتكُم على خُطَّةٍ أرخصُ متاع فيها النفوس إلا أبدأُ بنفسى . واعلموا أنَّكم إن صبَرتُم على الأشقِّ قليلا ، استَمعتُم بالأَرْفهِ الألذِّ طويلا ، فلا ترغَبُوا بأنفسِكم عن نفسى ، فما حظُّكم فيه بأوفرَ من حظِّى ، وقدِ بلغكُم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُورِ الحِسان ، من بناتِ اليونان ، الرَّافلاتِ فى الدُّرِّ والمَرجان ، والحُللِ المنسوجةِ بالعُقيان (الذهب) ، المقصوراتُ فى قصورِ الملوك ذوى التِّيجان ، وقد انتخبكُم الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ أميرُ المؤمنين ، من الأبطالِ

عُزْبانا ، ورضِيَكُم لملوكِ هذه الجزيرةِ أصْهارًا وأختانا ، ثِقةً منهُ بارتياحِكم للطِّعان ، واستماحِكم لمُجالدةِ الأبطالِ الفُرسان ، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ اللّهِ على إعلاء كلِمته ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مغنمُها خالصةً لكم من دونِه ، ومن دونِ المؤمنينَ سِواكم . واللّه تعالى ولىُّ إنجادِكم ، على ما يكونُ لكم ذكرًا فى الدّارَيْن .

واعلموا أنّى أوّلُ مُجيبٍ إلى ما دعوتُكم ، وإنّى عند مُلتَقى الجمعْين ، حامِلٌ بنفسى على طاغيةِ القومِ لذْريق ، فقاتِلُه إنْ شاءَ اللّه تعالى . فاحمِلوا معى ، فإنْ هلكتُ بعدَه ، كفيْتُكم أمرَه ، ولم يُعوزْكم بطلٌ عاقلٌ تُسنِدُونَ أمورَكم إليه ، وإن هلَكتُ قبلَ وصولى إليه ، فاخلُفونى فى عزيمتى هذه ، واحْمِلوا بأنفسِكم عليه ، واكتفُوا الهمَّ من فتحِ هذه الجزيرة بقتلِه ، فإنّهم بعده يُخذلون » .

٣

أقبل لُذْريق وهو على سريرِه ، وقد حُمِل على رأسِه رِواقُ ديباج يُظَلِّلُه ، وهو مُقبلٌ في غيابة من البُنودِ والأعلام ، وبين يدِه المقاتِلةُ والسِّلاح ، وأقبلَ طارقٌ في أصحابه عليهم الزَّرَد ، ومن فوقِ رءوسِهم العمائم البيض ، وبأيديهم القِسِيُّ العربيّة ، وقد تقلَّدوا السُّيوف ، واعتقلوا الرِّماح ، فلمَّا نظر إليهم لُذريق ؛ تذكَّر تِمثالَ الرَّجُلِ البربريّ ، الَّذى رآه في بيتِ الحكمة ، يوم أصرَّ على فتحِ ذلك البيت ، الَّذى كان كلُّ ملكٍ يضعُ ببابه قُفلًا يومَ تتويجه ، فقال :

ــ إنَّ هذه الصُّورَ هى الَّتى رأيناها في بيتِ الحكمة .

فداخلهُ منهمُ رُعب ، واستولَى عليه خوفٌ شديد . ونظر طارقٌ ورأى الملكَ فى أبّهته ، فقال :

ـ هذا طاغيةُ القوم ، إنّى حاملٌ عليه ، فاحمِلوا معى .

وبدأ الهجُوم ، وراح طارقٌ يَلْعب بالسَّيف ، ويشُقُّ طريقَه إلى لُذْريق ، وحمل أصحابُه معه ، فتفرَّقتِ المُقاتلةُ من بين يدىْ لُذْريق ، فخلُصَ إليه طارق ، وضربه بالسَّيفِ على رأسِه ، فقتله على سريرِه . فلمَّا رأى أصحابُه مَصْرَعَ صاحبِهم ، دبَّ الذُّعرُ فى قلوبِهم ، وراحوا يُولُّونَ الأدبار ، ولاحَ النَّصْرُ للمسلمين .

وقُتِل خلْقٌ كثير ، ووقعَ فى الأَسْرِ خلقٌ كثير ، وجمع المُسلمونَ الغنائم ، وتسامعَ النَاسُ من أهلِ برِّ العُدوَةِ بالفتحِ على طارقٍ بالأندلس ، وسعَة الغنائم فيها ، فأقبلوا نحوَه من كلِّ وجه ، وخرَقوا البحرَ

على كلِّ ما قَدَروا عليه من مَرَاكِبَ وقواربَ صغيرة ، فلحِقوا بطارق : وارتفعَ أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحُصونِ والقِلاع ، وتهاربوا من السَّهل ولحِقوا بالجبال .

وأقبلَ طارقٌ يفتحُ البلاد ، حتَّى إذا بلغَ مدينةً حصينةً امتنعتْ عليه ، حاصرها . وفى ذاتِ ليلة ، خرجَ إلى النَّهر لبعضِ حاجتِه ، فصادف رجُلاً من رجالِ المدينةِ هناك : فوثبَ عليه طارقٌ فى الماء ، فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، وراح يسألُه عن المدينة وعن أهلِها ؟ فإذا به يعترفُ بأنَّه أميرُ المدينة .

وصالحه طارقٌ على ما أحبَّ ، وضرب عليه الجِزيَة ، وخلَّى سبيلَه .

٤

قذف اللّهُ الرُّعبَ فى قلوبِ الأندلُسيِّين ، لمّا رأوْا طارقًا يُوغِلُ فى البلاد ، وكانوا يحسبونَه راغبًا فى المغنَم ، عاملاً على القُفول ، فَسُقِط فى أيديهم ، وَتطايروا عن السُّهول إلى المعاقل ، وصعِدَ ذو القُوَّةِ منهم إلى عاصمةِ مملكتِهم طَلَيْطلَة ، فقال يُليانُ لطارق :

ـ قد هزمتَ القوم ، فانطلِق لعاصمتِهم : وهؤلاء أدِلّاءُ من أصحابى مَهَرة ، ففرِّقْ جيوشك معهم فى جهاتِ البلاد ، واعمِدْ أنت إلى طلَيُطِلَة حيث معظمُهم ، فاشغَل القومَ عن النظر فى أمرِهم ، والاجتماع إلى أولى رأيهم .

وعمِلَ طارقٌ بنصيحةِ يُليان ، ففرَّقَ جيوشَه مع

أَدِلاَّءَ من أصحابِ يُلْيان ، بعثَ مُغِيثًا « الرُّومـيّ » ، مولَى الوليدِ بنِ عبدِ الملك ، إلى قُرطُبَة ، وكانتْ من أعظمِ مدائنِهم ، فى سبع مئةِ فارس ، فما كان فى جيشِ طارقٍ راجلٌ بعد أن ركِبَ المسلمون خيولَ أهلِ البلاد ، وبعثَ جيشًا آخرَ إلى مالَقَة ، وآخرَ إلى غَرناطَة ، وسارَ هو فى معظمِ النّاسِ يُريد طَلَيْطِلَة .

أرسلَ الأدِلاّء ، فأمسكوا راعىَ غنم ، فسُئل عن قُرْطبَة ؟ فقال :

ـ رحل عنها عظماءُ أهلِها إلى طُلَيْطِلَة ، وبقِىَ فيها أميرُها فى أَرْبَع مِئَةِ فارسٍ من حُمَلتهم ، مع ضُعفاءِ أهلِها .

وسُئِل عن سُورِها ؟ فقال :

ـ إنّه حصينٌ عالٍ فوق أرضِها . إلاّ أنّ فيه ثَغْرَة .

ووصفَها لهم .

وجاء اللَّيل ، وأقبلوا نحوَ المدينة ، ووطَّأ اللّهُ لهم أسبابَ الفتح ، بأن أرسلَ السَّماءَ برذاذ ، أخفى وَدْقُه حوافرَ الخيل ، وأقبل المسلمونَ رُوَيْدا ، حتى عبروا نهرَ قُرْطُبَة ليلا ، وقد أغْفَلَ حرسُ المدينةِ احتراسَ السُّور ، فلم يظهروا عليه ، ضِيقًا بالّذى نالهم من المطرِ والبرد .

فترجَّل القومُ حتىٰ عبروا النَّهر ، وليس بين النَّهرِ والسُّورِ إلا مقدارُ ثلاثينَ ذراعًا أو أقلّ ، وأرادوا التَّعلُّقَ بالسُّور ، فلمْ يجدوا مُتَعلَّقا ، ورجعوا إلى الرّاعى ، ليدُلَّهم على الثَّغْرَةَ الَّتى ذكرَها ، فأراهم إيَّاها ، فإذا من الصَّعْب الصُّعودُ إليها ، إلاّ أنَّه كانتْ فى أسفلِها شجرةُ تين مَكَّنت أفنانُها من التَّعلُّق بها ، فصعِد رجلٌ من أشِدّاء المُسلمين فى أعلاها ، ونزع رَجلٌ عِمامتَه ، فناوله طرَفَها ، وأعان بعضُ النَّاسِ بعضًا حَتّى كثُرُوا على السُّور ، وركِب قائدُ

المسلمين ، ووقف من خارج ، وأمر أصحابَه المُرتقين للسُّور ، بالهُجوم على الحرَس ، ففعلوا ، وقتلوا نفـرًا منهـم ، وكسـروا أقفالَ البـابِ وفتحـوه ، فدخـل المسلمونَ يُكبِّرون ، واستولَوْا على المدينةِ الحصينة ، ولكنَّ مَلِكَها وبعضَ حاشِيته ، انطلـق إلى الكنيسـة وتحصَّن بها .

٥

بقِيَ الملكُ فى الكنيسةِ ثلاثةَ أشهر ، حتّى ضاقَ من ذلك قائدُ المسلمين ، فتقدَّم من أسودَ من عبيدِه اسمُه رَباح ، وكان يجيدُ الاختفاء ، وأخبره أن يُحاولَ القبضَ على واحدٍ من القوم ، يعرف منه أخبارَهم .

انطلقَ العبدُ حتى اقترب من الكنيسة ، ودعاه ضعفُ عقلِه إلى أَن يصعَدَ فى بعضِ الأشجارِ القريبةِ من الكنيسة ، ليجنىَ ما يأكلُه ؛ فبصُر به أهلُ الكنيسة ، وشدّوا عليه ، فأخذوه فملكوه ، وهم فى ذلك هائبونَ له ، مُنكرون لخَلقِه ، إذ لم يكونوا عاينوا أسودَ قَبْلَه ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لَغَطُهم وتعجُّبهم من خلقِه ، وحسبوا أنّه مصبوغٌ أو مطلِيٌّ ببعضِ الأشياء الّتى تُسَوِّد ، فجرَّدُوه وسْط جماعَتِهم ،

وأدنوه إلى القَناةِ التى منها كان يأتيهمُ الماء ، وأَخذوا فى غَسلِه وتدليكِه بالحبالِ الخُرْشِ حتى أدمُوه ، فاستغاثَهم ، وأشارَ إلى أنَّ الذى به خِلقةٌ من بارئهم عزَّ وجلَّ ، ففهموا إشارتَه ، وكفّوا عنه وعن غِسْلِه ، واشتدَّ فزعُهُم ، ومكث فى إسارِهم سبعة أيّامْ لا يتركونَ التجمُّعَ عليه ، والنَّظر إليه .

وفى ذاتِ ليلةٍ غافلهم وَفَرَّ ، وانطلقَ إلى قائدِ المُسلمين ، وعرَّفه بالذى اطَّلَع عليه من شأنِهم ، وموضع الماء الذى ينتابونه ، ومن أىِّ ناحيةٍ يأتيهم ، فأمر أهلَ المعرفةِ بطلبِ تلك القَناة ، فى الجهةِ التى أشارَ إليها الأسود ، حتى أصابوها ، فقطعوها عن جَرْيِها إلى الكنيسة ، وسَدُّوا منافذَها ، فلم يسعْ من فيها إلاَّ التسليم . ولكنَّ الملكَ غافلَ القوم ، وفرَّ وحدَه ، يريد طُليْطِلَة .